

البرنغاليون

والبحر

الأحمر

للدكتور سعد زغلول عبد ربه
أستاذ التاريخ الحديث - كلية الآداب - جامعة طنطا

كانت أوروبا تحصل على حاجتها من سلع الشرق الأقصى من الاسكندرية وموانئ البحرين الأسود والمتوسط ، وكان تجار البندقية يتولون في القرن الثالث عشر نقلها الى أوروبا . وقد ترتب على الاشتغال بتلك التجارة ثراء تجار الاسكندرية والبندقية الذين كانوا يقومون بدور الوسيط لتوزيعها في أوروبا . وقد أدى التنافس الذي حدث بين البنادقة والجنويين الى اتجاه الجنويين الى البرتغال ، ومحاولة استغلال معلوماتهم الجغرافية المتعلقة بفكرة الدوران حول القارة الافريقية ، والوصول الى الهند ، وبالتالي وضع أيديهم على تجارة الشرق الأقصى الواردة عن طريق الهند . وكان يحكم البرتغال في ذلك الوقت أسرة ايفيز Aviz ، وكانت من الأسر الملكية المتمسكة بالدين المسيحي ، وترى أن على عاتقها تقع مهمة نشر الدين المسيحي في الأراضي الاسلامية . ولذلك تبدأ البرتغال في تنفيذ هدفها الديني بالاستيلاء على مدينة سبته في سنة ١٤١٥ ، وتبدي اهتمامها بمعلومات الجنويين الخاصة بإمكان الدوران حول القارة الافريقية ، خاصة وأنه كان هناك قصة منتشرة في أوروبا عن وجود ملك مسيحي يحكم في وسط آسيا او افريقية ، هو القس يوحنا او برستر جون P. John

وقد حذت الاشاعات مكان وجود ذلك الملك المسيحي فيما بين الصين وغامبيا ، وأنه يسيطر على منطقة كبيرة .

قرر البرتغاليون الوصول الى القس يوحنا للتحالف معه وضرب المسلمين من الخلف والأمام والانتقام للهزائم التي تعرض لها الصليبيون في الشام ، وكشف طريق بحري يصل الى الهند ولا يمر بالأراضي الاسلامية ، ووضع أيديهم على تجارة الشرق الأقصى ، وبذلك يحرمون المسلمين من المورد الاقتصادي الذي كانوا يستطيعون عن طريقه تكوين وتمويل قواتهم العسكرية التي يحاربون بها المسيحيين . وقد رسم البرتغاليون خططهم على أساس كشف ساحل افريقية الغربي كشفا منظما ووضع أيديهم على ذهب وتجارة حرب افريقية لتمويل عملياتهم الكشفية ، وحرمان مسلمي شمال افريقية من ذلك المورد المالي الهام .

أعدت البرتغال الأساطيل اللازمة لعمليات الكشف ، واستعانت بخبرة

البحارة والجغرافيين الجنوبيين . وكانت عمليات الكشف في بدايتها بطيئة . ولكن البرتغاليين ثابروا على تلك العمليات حتى استطاع بارتولوميو دياز الوصول الى القمة الجنوبية لافريقية ، والدوران Bartholomew Diaz حولها في سنة ١٤٨٧ . وبذلك أصبح الأمل كبيرا في الوصول الى الهند عن طريق البحر ، وبدون المرور في الأراضي التي يسيطر عليها المسلمون . وانتهزت البرتغال الفرصة وكونت حملة أخرى بقيادة فاسكو داجاما

V. da Gama تحركت من البرتغال في الثامن من أغسطس سنة ١٤٩٧ متجهة الى الساحل الغربي لافريقية لاستغلال كشف بارتولوميو دياز . واستطاع داجاما الدوران حول القمة الجنوبية لافريقية في أواخر ديسمبر سنة ١٤٩٧ ، ووصل الى جزيرة القديس جورج القريبة من موزمبيق في أول مارس سنة ١٤٩٨ . وحدث تبادل تجاري بين البرتغاليين وسكان موزمبيق ، ثم التحرك بعد ذلك شمالا الى مالندي التي حصل منها على مرشد هندي اسمه كانا Cana ، أرشده عبر المحيط الهندي الى الساحل الغربي للهند ، وبذلك استطاع داجاما الوصول الى الساحل الهندي بالقرب من قاليقوط في ٢٨ مايو سنة ١٤٩٨ (١) .

تكبد البرتغاليون تضحيات بشرية ومالية كبيرة ، فقد توفي ثلثا أفراد الحملة في الطريق ، ولكن النتائج المالية كانت مذهلة جدا ، فقد تجاوز صافي الربح تكاليف الحملة ست مرات . وكان للنتيجة المالية والقصص التي سردها داجاما عما شاهده من عجائب الشرق أثرها على ملك البرتغال الذي صمم على استغلال كشف داجاما ، وأرسال اسطول آخر الى الهند للاستيلاء على تجارة الشرق . ونفذت البرتغال عزمها وأرسلت في مارس سنة ١٥٠٠ حملة جديدة بقيادة بدرو الفاريز P. A. Cabral مهمتها الحصول على قاعدة للسفن البرتغالية في الشرق عن طريق المفاوضات أو باستخدام القوة المسلحة ، واجبار المسلمين في تلك المنطقة على اعتناق الدين المسيحي ، والاستيلاء على سفن المسلمين وسفن كوشين وكانانور التي يصادفونها في طريقهم باستثناء سفن مالندي الموالية للبرتغال (٢) .

كانت تجارة الشرق الأقصى مرتبطة بالعمل المقدس ، ونشر الديانة المسيحية بين المسلمين والوثنيين ، كما كانت تدر ربحا كبيرا . ولما كانت سيطرة البرتغال على تجارة الشرق تتطلب القضاء على مقاومة المسلمين بالمنطقة ، وهذا العمل يتطلب إرسال اسطول برتغالي قوي مجهز بقوة

عسكرية مدربة تدريباً جيداً على القتال البحري فقد جهز البرتغاليون أسطولاً من عشرين سفينة بقيادة فاسكو دا جاما تحرك من البرتغال في العاشر من فبراير سنة ١٥٠٢ متجهاً إلى المحيط الهندي . وكان على دا جاما إبقاء خمس من سفن ذلك الأسطول بصفة دائمة في مياه المحيط الهندي لحماية المحطات التجارية البرتغالية في كوشين وكانانور ، وسد مدخل البحر الأحمر ، وإبعاد العرب عن تجارة الهند (٣) .

وبتوالي استخدام البرتغاليين للطريق البحري إلى الهند تبين للبرتغاليين أن الضرورة تتطلب تجول بعض سفن الأسطول البرتغالي أمام مدخل البحر الأحمر ، وتدمير السفن العربية التي تحاول الخروج منه ، وكذلك السفن العربية التي تتجول في المحيط الهندي . وقد كان للوجود البرتغالي في مياه المحيط الهندي أثراً ضاعفاً على التجار العرب في البحر العربي والموانئ الواقعة على ساحل الهند الغربي . وازداد ظهور ذلك الضغط بعضي الوقت ، وأصبح البرتغاليون من أخطر المنافسين والمزعجين في المنطقة خاصة وأن هدفهم النهائي هو القضاء كلية على طريق التجارة السابقة . ولذلك حاولوا جهدهم وبوضوح تام وقف سير التجارة الشرقية بين الهند والبحر الأحمر . وكانت تلك المحاولة من جانب البرتغاليين تتطلب وقفة صلبة من التجار العرب الذين سيطروا على تلك التجارة منذ فترة طويلة ، ولذلك فقد طلب التجار العرب المقيمون في قاليقوت وشيخ عدن وهم الذين تأثرت مصالحهم الاقتصادية المساعدة من سلطان مصر ، وكانت مصر التي تأثرت مآليتها بسبب التدخل البرتغالي على استعداد للدخول في صراع مع البرتغاليين (٤) .

بدأ السلطان المصري في اتخاذ الإجراءات اللازمة لوقف البرتغاليين عند حدهم ولانتقاذ مصر من الانهيار الاقتصادي الذي تعرضت له . فأرسل حملة بقيادة الأمير حسين الكردي في نوفمبر سنة ١٥٠٥ مهمتها الأولى تقوية الحكم المملوكي في منطقة البحر الأحمر ، وتحصين سواحل ذلك البحر بعد أن أعلن البرتغاليون عن عزيمتهم مهاجمة المدن المقدسة في العجاز وتخريبها . وما أن وصل الأمير حسين إلى جدة حتى بدأ في بناء سور ضخم له أبراج عالية ، ثم توجه إلى سواكن واستولى عليها ، وأقام بعض الاستحكامات بها . ومن سواكن اتجه الأسطول المصري إلى بعض الموانئ اليمنية حيث بقى بعض الوقت بميناء عدن (٥) .

تحرك الأسطول المصري من مياه عدن ، واتجه إلى الهند حيث اشتبك مع أسطول برتغالي . وفي ذلك الاشتباك انتصر الأسطول المصري على الأسطول

البرتغالي انتصارا جزئيا في موقعة ديو البحرية • كما استطاع بالاشتراك مع أسطول حاكم ديو هزيمة أسطول برتغالي مكون من ثمان سفن عند شول في سنة ١٥٠٨ (٦) •

كان لانتصار الاسطول المصري على الأسطول البرتغالي اثره على البرتغاليين الذين أحسوا بالخطر الشديد الذي سوف تتعرض له مصالحهم في المنطقة خاصة وأن وصول ذلك الاسطول الى مياه المحيط الهندي كان مفاجأة لهم ، بالإضافة الى انضمام سفن عدد من الولايات الهندية الى سفن ذلك الاسطول • ولذلك سارع فرانشكو دالهيذا نائب الملك بالهند في الخروج على رأس اسطول اخر مكون من تسع عشرة سفينة لملاقاة الاسطول المصري والقضاء عليه • واشتبك الاسطول البرتغالي مع الاسطول المصري وحلفائه عند ديو في الثالث من فبراير سنة ١٥٠٩ • وفي ذلك الاشتباك انتصر البرتغاليون على المصريين وحلفائهم انتصارا ساحقا • ويرجع ذلك الانتصار الى رفض الأمير حسين بالانسحاب بما بقي من سفنه الى جده ، بينما سارع حاكم ديو بعقد معاهدة صلح مع البرتغاليين (٨) •

بانتصار البرتغاليين على المصريين في ديو رسخت أقدامهم في المحيط الهندي ووضموا أيديهم على مصادر التوابل واحتكروا تجارتها • واتماما للفائدة عمل البرتغاليون على تشديد الحصار على الخليج الفارسي (العربي) والبحر الأحمر حتى لا تصل تجارة التوابل الى المصريين ، وراقبت سفنهم مدخل البحر الأحمر لمنع السفن الاسلامية من الدخول أو الخروج من ذلك البحر • وقد أدت تلك المراقبة وذلك الحصار الى استيلاء البرتغاليين في سنة ١٥٠٩ على بعض السفن اليمنية (٩) • ولم تستطع السلطات اليمنية وقف الاعتمادات البرتغالية أو الرد عليها • واضطر السلطان اليمني الظافر الثاني الى الاستنجاد بالسلطان الغوري ومطالبته بالاسراع باتخاذ عمل مضاد يقضي على استفحال الخطر البرتغالي (١٠) • وقد أرسل السلطان الغوري في يونيو سنة ١٥١٠ رده على سلطان اليمن مبينا له حقيقة الموقف في القاهرة ، والاستعدادات التي تقوم بها لمواجهة البرتغاليين (١١) • وقد طلب السلطان الغوري في يونيو سنة ١٥١٠ من ملوك الهند مساعدته في القتال ضد البرتغاليين (١٢) وكما طلب من بايزيد الثاني سلطان الدولة العثمانية امداد مصر بالسلاح • وكان من رأي بايزيد الثاني أن البرتغاليين سوف يحاولون الوصول الى مكة والمدينة وتدميرهما ، ولذلك وعد بإرسال السلاح ومساعدة الدولة المملوكية (١٣) • ووفى السلطان بايزيد بما وعد ، وحمل السفن المصرية وعددها ثمانى عشرة سفينة بالسلاح والأغشاب والمعونة العثمانية •

ولكن هذه الممونة لم يكتب لها الوصول سالمة الى الاسكندرية بسبب تعرضها لهجوم سفن فرسان القديس يوحنا في ١٠ أغسطس سنة ١٥١٠ ، وحدث معركة غير متكافئة بين الطرفين أغرقت فيها سفن الفرسان بعض السفن المصرية ، وأسرت البعض الآخر ، كما تاهت سفينتان في العاصفة . وبذلك فان السفن الست الباقية التي وصلت الى الاسكندرية لم يكن عليها شيء من الممونة العثمانية (١٤) .

ومن ناحية أخرى فقد عمد الأمير حسين الكردي الى تحصين ميناء جدة حتى تستطيع الصمود في وجه البرتغاليين ان هم حاولوا الذهاب اليها ومهاجمتها عن طريق بناء سور ضخم حولها (١٥) . وطلب من أمراء الهنود الذين استمروا على حلفهم مع مصر ممونة مالية لبناء السور . وبرر ذلك الطلب بقوة البرتغاليين ، واستطاعتهم دخول البحر الأحمر ، والوصول الى جدة وتدمير الأماكن الإسلامية المقدسة في مكة والمدينة (١٦) . ولما كان أمراء الهنود يعتقدون أن البرتغاليين سوف يحاولون دخول البحر الأحمر وتدمير الأماكن الإسلامية فقد قدموا حمولة ثلاث سفن من سفن التوابل اسهاما منهم في تحصين جدة (١٧) . واستطاع الأمير حسين بتلك الممونة الانتهاء من بناء السور في سنة ١٥١١ وكان قد بدأ في بنائه في سنة ١٥٠٩ (١٨) .

فرض البرتغاليون الحصار حول مدينة عدن ، ولكنهم لم يستطيعوا الاستيلاء عليها لقوة تحصيناتها الطبيعية . وكان الهدف من هذا الحصار اسقاطها والاستيلاء عليها ، واستخدامها قاعدة عسكرية يستطيعون من طريقها السيطرة على البحر الأحمر والقضاء على الاسطول المصري المناوئ ومنعه من الخروج الى المحيط الهندي ، ومهاجمة سفنهم وطردهم من الهند . وبذلك يقضون على أمل أمراء الهند في وصول الامدادات العسكرية من مصر اليهم ، وتفتر مقاومتهم للبرتغاليين . وبذلك تستقر الأمور للبرتغاليين في الهند (١٩) .

قرر البوكريك الاستيلاء على عدن فخرج من جوا في ٨ فبراير سنة ١٥١٣ بأسطول كبير بلغت عدة سفنه عشرين سفينة تحمل على ظهرها ٢٥٠٠ محارب ، ووصل الى عدن في ٢٤ مارس سنة ١٥١٣ (٢٠) وكانت أخبار الحملة قد سبقت وصولها ، فاتخذ حاكم عدن العدة لملاقاة البرتغاليين . وعلى الرغم من انتفاء عنصر المفاجأة فقد استولى البرتغاليون على بعض السفن الراسية في ميناء عدن ، وقصفوا المدينة بثيران مدافعهم . وخشى حاكمها من تدميرها على يد البرتغاليين فأرسل بعض الهدايا الى البرتغاليين وطلب عقد هدنة معهم (٢١) . وقد رفض البرتغاليون الاقتراح ، وأعادوا له هدايا ،

وهددوا بالاستيلاء على المدينة قهرا اذا لم يستجب حاكمها ويسلمها لهم
سلما ، ومنعوه مهلة حتى اليوم التالي (٢٢) .

رفض حاكم عدن الاستجابة لتهديد البرتغاليين ، فهاجموا المدينة ،
واستطاع بعض أفرادهم تسلق الأسوار والنزول الى المدينة (١٣) . ولم
يخف سكان المدينة من نزول البرتغاليين في مدينتهم ، وهاجموهم بكل ما وقع
تحت أيديهم من حجارة مما شجع حاكمها على رفض التسليم ، ومهاجمة
البرتغاليين الذين تسربوا الى داخل المدينة ، وأجبرهم على الهرب . واضطر
البرتغاليون الى اطلاق نيران مدافعهم لتفגיע انسحاب قواتهم من داخل
المدينة (٢٤) ، وبذلك فشلت محاولة البرتغاليين الاستيلاء على المدينة (٢٤) .
فانسحبوا من مياهها بعد أن أشعلوا النار في السفن الراسية في الميناء (٢٥) .

انسحب البرتغاليون من مياه عدن واتجهوا الى باب المندب ومنه الى
البحر الأحمر متجهين الى الشمال ، واستولوا على جزيرة قمران في أبريل
سنة ١٥١٣ (٢٦) . وكما هي عادتهم في اخافة وارهاب السكان دمروا مبانيها
وقتلوا من وجدوه عليها من السكان اليمنيين (٢٧) . واستقر البرتغاليون
بالجزيرة حتى شهر يوليو سنة ١٥١٣ . ولم يحاول سلطان اليمن اتخاذ أي
اجراء لطردهم من الجزيرة (٢٨) . واذا كان البرتغاليون قد وصلوا الى
جزيرة قمران الا أنهم لم يستطيعوا الوصول الى ميناء جدة بسبب تعرض
سفنهم لعاصفة شلت اسطولهم . ومنعتهم من الوصول الى الأراضي المقدسة
وتنفيذ هدفهم الرامي الى العبث بالمقدسات الاسلامية ، وتدمير قبر الرسول
عليه السلام بالمدينة (٢٩) .

تحرك الاسطول البرتغالي في مياه البحر الأحمر بعد فشله في الاغارة على
جدة والمدينة المنورة ، وأغارت بعض سفنه على ميناء زيلع ، وأطلقت نيران
مدافعها على السفن الراسية فيه ، وأشعلت فيها النيران (٣٠) .

ترتب على وصول الاسطول البرتغالي الى البحر الأحمر خوف أمير مكة
من نزول البرتغاليين في ميناء جدة أثناء وجود الأمير حسين الكردي في مصر ،
فتحرك بقواته الى جدة ، وبعث رسالة الى السلطان الفوري بين فيها خطورة
الموقف في المنطقة ، وطلب الاسراع في ارسال الامدادات الى جدة لمنع نزول
البرتغاليين بها والاستيلاء عليها (٣١) . واستجاب السلطان الفوري لطلب

امير مكة فامر الأمير حسين الكردي بالاسراع بالتوجه الى جدة ، كما أرسل معه أحد الأتباع لاستقصاء أخبار البرتغاليين ، كما أمر بسرعة تجهيز السفن التي كان يتم انشاؤها في السويس ، وتزويد الحملة المنتظرة بحاجتها من الجنود والفنيين . ولم تتوقف جهود السلطان الغوري عند هذا الحد فقد توجه بنفسه الى ميناء السويس في مارس سنة ١٥١٤ للاشراف على انزال السفن الجديدة الى مياه البحر الأحمر . وتتابعت امدادات السلطان الغوري لحسين الكردي فأرسل له قوة عسكرية أخرى في يوليو سنة ١٥١٤ ، كما أرسل أسطولاً آخر في يونيو سنة ١٥١٥ بقيادة سلمان العثماني (٣١) . وقد انضم سلمان العثماني الى حسين الكردي ، واشترك معه في قيادة الاسطول المصري ضد البرتغاليين (٣٢) .

تأثرت التجارة اليمنية بسيطرة البرتغاليين على مياه المحيط الهندي ، ولذلك عملوا في أول الأمر على امداد الاسطول المصري المتجه الى الهند في سنة ١٥٠٧ بحاجته من الامدادات ، وعاملوه معاملة الحلفاء . ولكن لم تلبث المعاملة أن تغيرت بعد هزيمة الاسطول المصري في المياه الهندية ، وبدأ البرتغاليون حملاتهم العسكرية في البحر الأحمر . فقد وقف حاكم عدن موقفاً سلبياً عندما هاجم البرتغاليون ميناء عدن في سنة ١٥١٣ (٣٣) . وتطور موقف اليمنيين ضد المصريين بوقوفهم موقف العداء الصريح ضد الاسطول المصري بقيادة حسين الكردي وسلمان العثماني . ولما كان حسين الكردي حريصاً على سيادة واستقلال اليمن فقد بحث من يخبر سلطانها بأمر الحملة المصرية ، والعمل على تزويدها بحاجتها من المؤن والأموال طبقاً لما تعهد للسلطان الغوري عندما طلب منه المساعدة (٣٤) . وبين له أن هدف الحملة هو الابحار الى الهند لمقاتلة البرتغاليين .

لم يستجب سلطان اليمن لطلب حسين الكردي الذي تقدم من جيزان الى جزيرة قمران فوصلها في ديسمبر سنة ١٥١٥ . ومن هناك أرسل الهدايا الى زبيد ، وطلب تزويد الحملة بالمؤن والأموال لمساعدة الاسطول المصري على مواصلة الجهود ضد البرتغاليين (٣٥) . وكان السبب في عدم استجابة سلطان اليمن خوفاً من أن يصبح ذلك التزاماً سنوياً عليه (٣٦) ، وطلب من والي زبيد عدم ارسال المؤن المعتادة الى جزيرة قمران والعجاز حتى لا يستولى عليها المصريون (٣٧) .

كان تعاون سلطان اليمن مع الحملة المصرية أمراً ضرورياً لنجاحها .

ويتطلب نجاح الحملة السماح لسفنها باستخدام بعض الموانئ اليمنية ، وبذلك يستطيع الاسطول المصري تأمين البحر الأحمر وحماية سواحلها . وعلى الرغم من أن حسين الكردي كان يرى احترام سيادة واستقلال اليمن إلا أن تقاعس سلطانها عن تقديم المساعدة للاسطول المصري قد أجبره على اتخاذ الخطوات اللازمة لتأمين قواته . وكانت هذه الخطوات تتمثل في الاستيلاء على القواعد البحرية اليمنية اللازمة للاسطول المصري . وعلى أساس ذلك التفكير حول حسين الكردي جهوده العسكرية الى اليمن للاستيلاء على الموانئ اللازمة لأسطوله حتى يمكنه التفرغ بمعد ذلك للصراع مع البرتغاليين وهو مطمئن الى وجود خط دفاع خلفه يمكنه اللجوء اليه عند اللزوم (٣٨) .

تحرك حسين الكردي وسلمان العثماني الى زيلع في يوليو سنة ١٥١٦ بعد أن ترك بعض قواته في تهامة للاستيلاء على اليمن (٣٩) . ولم يلبث أن تحرك من زيلع بعد اصلاح سفنه وتزويدها بحاجتها من المؤن متجها الى عدن (٤٠) ، فوصلها في ١٢ أغسطس سنة ١٥١٦ . واستطاعت القوات المصرية بعد مقاومة عنيفة الاستيلاء على المدينة ولكن القوات اليمنية أجبرتها على الانسحاب ، ومغادرة عدن في ١٩ أغسطس من نفس العام (٤١) . واضطر الاسطول المصري بعد ذلك الى الانسحاب الى جدة بسبب الخلاف الذي نشب بين حسين الكردي وسلمان العثماني (٤٢) .

فشلت خطة البوكيرك الخاصة بالاستيلاء على عدن في سنة ١٥١٣ (٤٣) ، إلا أن هذا الفشل لم يقض على فكرة السيطرة البرتغالية على عدن على أساس أن السيطرة عليها سوف تؤدي الى السيطرة على البحر الأحمر ، وبالتالي قطع الصلة بين مصر والهند وتوجيه ضربة للمصالح المصرية التجارية في الهند ، وفي نفس الوقت تثبت السيطرة البرتغالية على مياه المحيط الهندي وعلى التجارة الشرقية . ولذلك حاول البرتغاليون الاتصال بمملكة الحبشة المسيحية والتعاون معها ضد مصر والحجاز ، بهدف تدمير المقدسات الاسلامية في مكة والمدينة (٤٤) .

بدأ البرتغاليون في تنفيذ هدفهم فتحرك أسطول برتغالي بقيادة سواريز من جوا بالهند في الثامن من فبراير سنة ١٥١٧ . وكان يتكون من أربعين سفينة ، وهو يحمل على ظهره ألفين من المقاتلين . وكانت مهمة ذلك

الاسطول مهاجمة الاسطول المصري في البحر الأحمر وتدميره والاتصال
بمملكة الحبشة (٤٥) .

وصل الاسطول البرتغالي الى ميناء عدن في الخامس من مارس سنة
١٥١٧ ، ولكنه لم يهاجم المدينة وعمل على اقرار الأمور سلميا مع حاكمها ،
وحاول أن يجتذبه الى جانبه ضد المصريين ، فأعلن أن الهدف من وصوله هو
الوقوف الى جانب العدنيين ضد المصريين الذين هاجموا بلاده وحاولوا
الاستيلاء عليها (٤٦) . وخشى حاكم عدن رفض المطالب البرتغالية ، وما قد
يؤدي اليه ذلك الرفض من مهاجمة البرتغاليين لعدن ومحاولة تدميرها فأمدهم
بحاجتهم من المؤن والمرشدين البحريين لقيادة سفنهم الى جدة (٤٧) .

تحرك سواريز من عدن في السابع عشر من مارس سنة ١٥١٧ ، ووصل
الى القرب من جدة ، ولكنه لم يستطع الوصول اليها بسبب شدة الرياح ،
كما فشل في تدميرها أو الاستيلاء عليها . ويرجع هذا الفشل الى قوة
التحصينات التي اقامها المصريون هناك (٤٨) . وقامت سفن الاسطول
المصري بقيادة سلمان بمطاردة سفن الاسطول البرتغالي وتمكنت من أسر
احداها بالقرب من ميناء اللحية اليمني ، وعادت بها بمن عليها من البرتغاليين
الى ميناء جدة (٤٩) .

أسرع البرتغاليون بالانسحاب من مياه جدة ، واتجهوا الى جزيرة قمران
ببعض سفنهم بينما شتتت الرياح البعض الآخر وحولته الى احدى الجزر
الواقعة أمام الشاطئ الافريقي بالقرب من ميناء سواكن . ولم يستطع
البرتغاليون الحصول على حاجتهم من المياه العذبة فاتجهوا الى جزيرة دهلك
وهم في حالة اعياء شديد ، وموت عدد كبير منهم بسبب نفاد مخزونهم من
المياه العذبة واضطراهم لشرب المياه المالحة ، ومن هناك اتجهت الى مصوع
حيث وقعت في كمين ترتب عليه قتل عدد آخر منهم (٥٠) .

هاجم البرتغاليون بقيادة سواريز جزيرة قمران ودمروا التحصينات
التي سبق وأنشأها حسين الكردي ، وأحرقوا النخيل الموجود بالجزيرة ثم
غادروا في ١٢ يونيو سنة ١٥١٧ متجها الى زيلع فوصلها في يوليو ، وقتل
عددا كبيرا من أهلها انتقاما منهم ، ثم اتجه الى عدن وهو في طريقه الى
الهند (٥١) . وتوقف سواريز خمسة أيام في مياه عدن ، ولكنه لم يهاجمها
بسبب ما لحق بقواته من خسائر ، وانتشار المرض بين من بقي من رجاله ،

ولعدم تأكده من نتائج ذلك الهجوم • وبذلك تغلّ سؤايرز عن فكرة مهاجمة عدن والاستيلاء عليها ، كما رفض قبول مفتاح المدينة الذي عرضه عليه حاكمها (٥٢) •

هاجم بعض الكتاب البرتغاليين سؤايرز لعدم استيلائه على عدن ، واتهموه بإضاعة الفرصة التي سئحت له في ذلك الوقت • ورأى ملك البرتغال أن الفضل الذي مني به البرتغاليون في البحر الأحمر يرجع الى سؤايرز فعزله من منصبه • وغادر سؤايرز الهند متجها الى البرتغال في ٢٠ ديسمبر سنة ١٥١٨ (٥٤) •

لم يئأس البرتغاليون بسبب الفضل الذي تعرضت له حملة سؤايرز في البحر الأحمر ، وقرروا تنفيذ مخططهم ، فأرسلوا حملة كبيرة بقيادة لوبو سكويرا نائب الملك في الهند الذي خلف سؤايرز • ووصلت الحملة الجديدة الى مدخل البحر الأحمر في أوائل سنة ١٥٢٠ • وكانت أغراض الحملة في هذه المرة تتكون من شقين : الأول منهما مهاجمة جدة والاستيلاء عليها ، والثاني انزال أول بعثة دبلوماسية برتغالية الى السواحل العُشبية لانشاء علاقات دبلوماسية مع مملكة الحبشة ، والتكاتف معها للقضاء على النفوذ الاسلامي في مياه البحر الأحمر - ولم يحاول سكويرا الرسو بميناء عدن بل توجه مباشرة الى ميناء جدة مستغلا في ذلك موسم الرياح ، ولكنه لم يستطع الوصول اليها بسبب الرياح العاكسة (٥٥) • كما وصلته أنباء تشير الى وجود قوات عسكرية اسلامية بها ، فاتجه الى ميناء مصوع حيث أنزل دي ليما المبعوث البرتغالي لملك الحبشة (٥٦) •

أرسل البرتغاليون في أوائل سنة ١٥٢٤ حملة كبيرة الى مصوع بقيادة دي سلفيرا وكان الهدف من ارسالها استعادة المبعوث البرتغالي الى بلاط ملك الحبشة • وقد قدم حاكم عدن المؤن للحملة أثناء ذهابها الى مصوع ، وتبين دي سلفيرا ضعف عدن ، ونظرا لأهميتها الاستراتيجية فقد أجبر حاكمها عند عودته على عقد مساعدة مع البرتغاليين نصت على أن تدفع عدن جزية سنوية للبرتغاليين ، وأن تسمح للسفن البرتغالية باللجوء الى مينائها في أي وقت ، ولكن نائب الملك في الهند رفض اعتماد تلك المعاهدة على أساس أنها تضيق للجهود البرتغالية • ولم تلبث القوات البرتغالية أن خربت بمدافعها عدن أثناء اتجاهها الى مصوع في سنة ١٥٢٥ ، ولكنها لم تحقق شيئا من النجاح • كما حاول دي سلفيرا في أثناء عودته من مصوع في

سنة ١٥٢٦ مهاجمة عدن ولكن الرياح أبعدت سفنه عنها . وعلى الرغم من الفشل المتكرر أمام عدن فقد استطاع دي سلفيرا في فبراير سنة ١٥٣٠ عقد معاهدة مع حاكم عدن اعترف فيها بالسيادة البرتغالية على عدن ، ودفع جزية سنوية للبرتغاليين . واعترف البرتغاليون بحق العدنيين في الملاحة في المحيط الهندي بشرط عدم ذهاب سفنهم الى جدة (٥٧) . ولضمان تنفيذ بنود المعاهدة ترك البرتغاليون إحدى سفنهم الحربية وعليها أربعون برتغاليا في ميناء عدن . ولم يكتب لتلك المعاهدة الاستمرار الا مدة قصيرة بعد رحيل دي سلفيرا عن عدن ، اذ قبض حاكم عدن على البرتغاليين الموجودين في الميناء وسجنهم واستخدمهم في صنع الأسلحة ، وأعلن دخوله في طاعة العثمانيين (٥٨) .

حاول البرتغاليون في سنة ١٥٢٣ استعادة مبعوثهم من بلاط ملك الحبشة فأرسلوا حملة هاجمت الشحر ونهته أثناء ذهابها الى مصوع ، ولكنها فشلت في تحقيق هدفها (٥٩) . ولم يياس البرتغاليون من استعادة سفنهم فأرسلوا الحملات السنوية الى البحر الأحمر حتى أمكنهم استعادته في أوائل سنة ١٥٢٦ (٦٠) . وكان المبعوث البرتغالي يحمل خطابين من ملك الحبشة ، كما صاحبه سفير من قبل ملك الحبشة . وفي هذين الخطابين أعلن ملك الحبشة من رغبته في قيام تعاون بينه وبين البرتغال ، ولكنه لم يعلن عن رغبته في الاشتراك مع البرتغاليين في اعلان الحرب على المسلمين ، وفي نفس الوقت أخذ يحرض ملك البرتغال على الاستمرار في معارضة المسلمين حتى يتم القضاء عليهم نهائيا ، والاستيلاء مرة أخرى على بيت المقدس . واذا كان ملك الحبشة لم يحدد في خطابه كيفية التعاون مع البرتغاليين فقد طلب منهم أن يقدموا له المساعدات حتى يستطيع الوقوف في وجه القوى الاسلامية المحيطة به . كما طلب ابقاء البعثة الدينية البرتغالية الموجودة في الحبشة لنشر الدين المسيحي في جميع جزر البحر الأحمر الواقعة على الحدود الحبشية ، لأن جميع سكانها من المسلمين والوثنيين (٦١) .

كان نجاح البرتغال في التحالف مع الحبشة معناه امكان تطويق العالم العربي من ناحية الجنوب ، وفي نفس الوقت يمثل تهديدا خطيرا ومباشرا للامكن الاسلامية المقدسة في الأراضي الحجازية . ولكن ذلك التحالف كان يحمل منذ البداية عوامل فشله بسبب اختلاف وجهتي نظر التحالفين ، واختلاف مذهبيهما الديني . فالأحباش يعتقدون الديانة المسيحية على المذهب الأرثوذكسي بينما يعتقد البرتغاليون الدين المسيحي على المذهب الكاثوليكي . ومن ناحية الأهداف كان الأحباش يرغبون في أن يساعدتهم البرتغاليون على

تطوير بلادهم حتى يستطيعوا الوقوف أمام الامارات الحبشية المسلمة المجاورة لهم . كما كانوا يرون أن تتعاون جميع الدول المسيحية الاوربية مع البرتغال بارسال قواتها الى البحر الأحمر ، وتستولي كل دولة من هذه الدول على أحد المواقع الهامة الواقعة على البحر الأحمر ، فتحتل اسبانيا زيلع ، وتحتل فرنسا سواكن ، بينما تحتل البرتغال مصوع . وفي نفس الوقت تساعد القوات المتحالفة الحبشة في الزحف على البلاد الاسلامية والاستيلاء على جدة ومكة والقاهرة وغيرها من المدن الاسلامية المهمة . وكان معنى هذا الاقتراح القضاء على احتكار البرتغال لطريق رأس الرجاء الصالح . وكان البرتغاليون يهدفون من وراء ذلك التحالف اتخاذ الحبشة قاعدة عسكرية لهم ، واستغلال ثروات الحبشة ، وتحويل الأحباش من المذهب الاورثوذكسي الى المذهب الكاثوليكي ، وما أن تبين الأحباش تلك الأهداف حتى عملوا على طرد البرتغاليين من ونجوا في تحقيق ذلك في أوائل القرن السابع عشر (٦٢) .

كان هناك عامل آخر ظهر الى حيز الوجود وأثر على موقف الأحباش من البرتغاليين هو ظهور الأتراك العثمانيين في البلاد العربية ، فقد خشى ملك الحبشة أن يؤدي تحالفه مع البرتغاليين الى مهاجمة القوات العثمانية لبلاده ، أو التدخل في تعيين رئيس أساقفة الحبشة التي كانت كنيستها تتبع كنيسة الاسكندرية ، وكان بطريرك الاسكندرية هو الذي يعين رئيس أساقفة الحبشة . كما خشى ملك الحبشة أن يؤدي نشاط العثمانيين في المنطقة الى اثارة القلاقل في الحبشة من جانب الامارات الحبشية المسلمة . ولهذه الأسباب فضل الأحباش عدم عقد اتفاقيات محددة مع البرتغاليين بل ان الأمر وصل بهم الى درجة التبرؤ من مبموثهم في بلاط ملك البرتغال (٦٣) .

وهكذا فعلى الرغم من محاولات البرتغاليين المتكررة الاستيلاء على مواقع استراتيجية على سواحل البحر الأحمر للقضاء على السيطرة الاسلامية على مياهه والوصول الى الأماكن المقدسة الاسلامية في الأراضي الحجازية لتدميرها والقضاء على الدين الاسلامي فانهم لم يستطيعوا الوصول الى هدفهم بسبب الجهود التي بذلها المصريون ، وخوف الأحباش من الأهداف البرتغالية ، ثم ظهور الأتراك العثمانيين كقوة اسلامية كبيرة يخشى خطرهما في مياه البحر الأحمر .

د. سعد زغلول عبد ربه

أستاذ التاريخ الحديث

كلية الآداب - جامعة طنطا

1. Strands, J.; Portuguese Period in East Africa, pp. 13 - 30.
2. Strands, J.; ibid. pp. 39, 43.
3. Strands, J.; ibid. pp. 43 - 45.
4. Strands, J.; ibid. p. 56.

٥ - أحمد دراج (دكتور) : الممالك والفرنج ، ص ١٢٧ .

6. Kammerer, A. ; La Mer Rouge, tome, p. 155. Barbossa, D. ; The E. African and. . . p. 61.

٧ - زين الدين الملباري : تحفة الجاهدين في بعض احوال البرتغاليين

صص ٤٠ - ٤١ .

Stephens. H.M. ; portugal, p. 197.

٨ - نعيم زكي (دكتور) : طرق التجارة الدولية .. صص ٢٠ - ٣١ - ٩١ .

Barbossa, D. : op. cit. p. 61, Kammerer, A. : op. cit., II. pp. 157, 174.

9. Kammerer, A. : ibid. II, pp. 157, 230.

١٠ - قطب الدين النهر والي : البرق اليماني في الفتح العثماني ص ١٩ .

١١ - ابن اياس : بدائع الزهور ، جزء ٤ ، ص ٢٠٩ .

Kammerer, A. : op cit., II, p. 232.

١٢ - ابن اياس : المرجع السابق ، جزء ٤ ، ص ١٨٥ .

١٣ - ابن اياس : نفس المرجع ، جزء ٤ ، ص ١٩٦ .

١٤ - ابن اياس : نفس المرجع ، جزء ٤ ، ص ١٩٦ .

Heyd, W. : Histoire du Commerce. . . II, pp. 537 - 539,
Depping, G. B. : Histoire du commerce. . . II, p. 270.

15. Darnes, M. The Book of Duarte Barosa, pp. 46 - 47.

16. Darnes, M : ibid., p. 47 Depping, G.B. : op. cit., II, p. 219.

17. Depping, G.B. : ibid., II, p. 219, Darnes, : op. cit., pp. 48 - 49.

18. Darnes, M : ibid., pp. 46 - 47.

19. Wilson, A.T. : The Parsian Gulf, p. 118.

20. Kammerer, A. : op. cit., II, p. 178, Wilson, A.T. : op. cit., pp. 118 119.

٢١ - با مقرفة : تاريخ لفترة عدن ، جزء ١ صص ١٢ - ١٣ ، ١٦ - ١٧ .

٢٢ - با مغرمة : قلادة النحر ، ج ٢ ص ١١٩٤ .

23. Kammerer, A. : op. cit., II, p. 186.

24. Marco, E. : yemen and the Western World, p. 1.

25. Kammerer, A. : op. cit., II, p. 186.

٢٦ - احمد دراج (دكتور) : المرجع السابق ، ص ١٥٥ .

27. Kammerer, A. : op. cit., II, pp. 192-193.

٢٨ - با مغرمة : قلادة النحر ، ج ٢ ص ١١٩٥ .

29. Kammerer, A. : op. cit., II, p. 193, Serjent, R.J. : The Portuguese ... p. 169.

٣٠ - يحيى بن الحسين : نهاية الأمانى ... ص ٦٤٠ .

Kammerer, A. : op. cit., II, p. 205.

٣١ - ابن اياس : المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ٢٠٨ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٣ .

٤٦٧ - ٤٦٦ ، ٤٦٥ - ٤٥٨

32. Kammerer, A. : op. cit., II, 231-232.

٣٣ - انظر ص ٩ من هذا البحث .

٣٤ - قطب الدين النهروالي : المرجع السابق ، ص ٢٠ .

Kammerer, A. : op. cit., II, 231.

٣٥ - يحيى بن الحسين : المرجع السابق ، ص ٦٤٢ .

٣٦ - قطب الدين النهروالي : المرجع السابق ، ص ٢٠ .

Kammerer, A. : op. cit., II, p. 233.

٣٧ - يحيى بن الحسين : المرجع السابق ، ص ٦٤٤ .

38. Denison, R. : The Portuguese in India and ... (J. P. A. S.) Oct. 1921, p. 560.

٣٩ - جمال الدين محمد الشبلي : السنا الباهر ... ص ٢٠٣ .

٤٠ - يحيى بن الحسين : المرجع السابق ، ص ٦٤٢ .

٤١ - قطب الدين النهروالي : المرجع السابق ، ص ٢٣ - ٢٤ .

٤٢ - السيد مصطفى سالم (دكتور) : الفتح العثماني الاول ، ص ٨٧ .

٤٣ - انظر ص ٨ من هذا البحث .

44. Kammerer, A. : cit., II, p. 265, wilson, A.T. : op. cit., p. 120.

45. Kammerer, A. : op. cit., II, pp. 205-266.

٤٦ - يحيى بن الحسين : المرجع السابق ، ص ٦٥٨ .

47. Kammerer, A. : op. cit., II, pp. 266-277.

48. Marco, E. : op. cit., p. 1, Kammerer, A. : op. cit., II, 267 - 269.
49. Serjeant, R.J. : op. cit., p. 170.
50. Kammerer, A. : op. cit., II, pp. 269, 272.
51. Kammerer, A. : ibid., II, pp. 273 - 274.
52. Marco, E. : op. cit., p. 2, Kammerer, A. : op. cit., II, p. 275.
53. Dames, M.L. : The Portuguese and ... (J.R.A.S.) Jan. 1921, pp. 12 - 13, Kammerer, A. : op. cit., II, pp. 266 - 267, wilson, A. T. : op. cit., p. 123.
54. Kammerer, A. : op. cit., II, p. 276.
55. Serjeant, R.J. : op. cit., p. 171.

٥٦ - با مخرمة : قلادة النحر ... جزء ٢ ، مصر ١٢٠٩ - ١٢١٠ .

57. Kammerer, A. : op. cit., II, pp. 283 - 288.
58. Serjeant, R.J. : op. cit., pp. 55 - 59, wilson, A.T. : op. cit., p. 121.
59. Serjeant, R.J. : op. cit., pp. 52 - 53.
60. Kammerer, A. : op. cit., II, pp. 285 - 286.
61. Alvarez, F. : Narrative of the Portuguese Embassy ... pp. 389 - 399.
62. Alvarez, F. : ibid. pp. 311 - 312.
63. Castanhoso, M. : The Portuguese Expedition to Abyssinia ... pp. xxviii-xxix.

المراجع

أولا - مخطوطات :

- ١ - با مخرمة (أبو محمد عبد الله الطيب) : قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر ٢ أجزاء .
- ٢ - جمال الدين محمد الشبلي : السنا الباهر بتكميل النور السافر في أخبار القرن العاشر .

ثانيا - مراجع باللغة العربية :

- ١ - ابن إياس (أبو البركات محمد بن أحمد العتفي) : بدائع الزهور في وقائع الدهور جزء ٤ ، القاهرة .
- ٢ - أحمد دراج (دكتور) : الماليك والفرنج ، القاهرة ١٩٦١ .
- ٣ - السيد مصطفى سالم (دكتور) : الفتح العشاني الأول لليمن ، القاهرة ١٩٦٩ .

- ٤ - يا مغرمة (أبو عبد الله الطيب) : تاريخ ثغر عدن ، جزوان ، ١٩٦٣
- ٥ - زين الدين الملباري : تحفة المجامدين في بعض احوال البرتغاليين ،
لشبونة ١٨٩٨ .
- ٦ - قطب الدين النهروالي : البرق اليماني في الفتح العثماني ،
الرياض ، ١٩٦٧ .
- ٧ - نعيم زكي (دكتور) : طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق
والغرب ، القاهرة ، ١٩٧٣ .
- ٨ - يعقوب بن الحسين : غاية الأمان في أخبار القطر اليماني ، القاهرة ،
١٩٦٨ .

ثالثا - مراجع باللغتين الانجليزية والفرنسية :

1. Alvarez, F. : Narrative of the Portuguese Embassy to Abyssinia during the years, 1520 - 1527, London, 1881.
2. Barbosa, D. : A Description of the Coast of E. Africa and Malabar in the beginning of the Sixteenth Century, London, 1866.
3. Castanhoso, M. : The Portuguese Expedition to Abyssinia in 1541 - 1533, London, 1902.
4. Dernes, M. : The book of Duarte Barbosa, 1518, 2 vols, London, 1921.
5. Depping, G. B. : Histoire du Commerce entre le Levant I; Europe, 2 vols, Paris, 1830.
6. Heyd, M. : Histoire du Commerce du Levant, 2 toms, Leipzig, 1925.
7. Kammerer, A. : La Mer Rouge ..., 2 tomes, Le Caire, 1929, 1935.
8. Marco, E. : Yemen and the Western World, London, 1968.
9. Serjeant, R.J. : The Portuguese off the south African coast, Oxford, 1963.
10. Stephens, H. M. : Portugal, London, 1891.
11. Strandes, J. : The Portuguese Period in East Africa, Nairobi, 1961.
12. Wilson, R. T. : The Persian Gulf, London, 1945.

رابعا - دوريات :

1. Journal of Royal Asiatic Society (J.R.A.S.) : Jan., Oct, 1921.